جانباً كبيراً من هيبته على حساب علاقاته ببقية العالم العربي – لم تحقق سوى قدر ضئيل من التقدم. ولا مناص من أن يعتريه الوجل إزاء ما ستخرج به عملية المراجعة الجارية في واشنطن... ومن ثم يبدو أن الرئيس المصري قد قبل بوجهة النظر (الغربية) التي عرضها عليه اللورد كارنغتون، وزير خارجية بريطانيا، خلال زيارته للقاهرة في كانون الثاني (يناير) ومؤداها أن المجموعة الأوروبية لا تقصد من مبادرتها تقويض عملية كامب ديفيد، بل يمكن النظر إليها كإضافة لعملية كامب ديفيد... والدلائل إذن هي أن الرئيس السادات يريد الاستفادة من المبادرة الأوروبية كوسيلة دفع لعملية السلام، ولكن دون إزعاج الأميركيين الذين رعوا عملية التقارب بين مصر وإسرائيل...».

وكان رأي لوموند، الفرنسية (١٩٨١/٢/١٠) أن «مصلحة الرئيس المصري تكمن في ملء الفراغ الدبلوماسي في الشرق الأوسط... الذي سيظل قائماً حتى نهاية الانتخابات النيابية الاسرائيلية».

هناك إذن من يرى أن هدف السادات الرئيسي في أوروبا كان تعطيل المبادرة الأوروبية، ويمكن أن يكون ذلك بدفع أميركي مباشر، بعد أن لوحظ أن هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركي الأسبق، قام بالمهمة نفسها بنجاح أقل، أثناء زيارته للمنطقة في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي. وهناك من يرى العكس تماماً، أن السادات إنما أراد تنشيط الدور الأوروبي، ربما على سبيل إثارة همة الادارة الأميركية التي يبدو حتى الآن أن تحركها تجاه الشرق الأوسط بطيء إلى حد يتسم بدرجة من اللامبالاة، وربما على سبيل البحث عن حجم أكبر من المساعدة الاقتصادية لدى أوروبا الغربية.

لكن وراء هذا الاختلاف، في حديه الأقصى والأدنى، اتفاق على الأقل على أن المشكلة هي بانتظار أمرين هما بداية تحرك ادارة الرئيس الأميركي رونالد ريغان، وما ستسفر عنه الانتخابات الاسرائيلية في حزيران (يونيو) القادم. ويمكن القول أن التحرك الأميركي، هو بدوره، بانتظار هذه النتيجة.

معطيات جديدة؟

مع ذلك فإن زيارة السادات للبرلمان الأوروبي ومحادثاته في باريس، قد أعادت حديث المبادرة الأوروبية مجدداً بعد خفوت هذا الصوت أو سكوته عدة أشهر. وعلا الصوت الأوروبي أكثر في أزمة الشرق الأوسط مع جولة برونو كرايسكي مستشار النمسا التي بدأت بزيارة القاهرة (١٩٨١/٢/١٥)، ومع بداية جولة كريستوفر فان دير كلاو وزير خارجية هولندا، الرئيس الحالي لمجلس وزراء السوق الأوروبية المشتركة التي تشمل ١٤ دولة شرق أوسطية.

هذا كله أثار التساؤل عما إذا كان قد آن الأوان لانطلاق المبادرة الأوروبية، بل الأحرى القول إنه أثار التساؤل على النحو الذي عبرت عنه صحيفة التايمز البريطانية في عنوان تحقيق لها من بروكسل «هل ستنطلق مبادرة أوروبا الشرق أوسطية أبداً؟».

وهذا سؤال يتكرر منذ فترة طويلة، ولا يبدو أن ثمة إجابة حاضرة عليه. كل ما يمكن قوله ان ثمة معطيات جديدة تحملها التحركات الأوروبية الأخيرة، وخاصة جولة فان دير كلاو المشار إليها. ويمكن تلخيص هذه المعطيات بما يلي:

□ إن رئيس مجلس السوق المشتركة سيسعى للحصول على استجابات أكثر تفصيلية للعمل النظري الذي أدته السوق حتى الآن بشأن الاقتراب من عملية السلام، وذلك أثناء جولته الجارية في الشرق الأوسط.

□ إن ثمة «وثيقة سرية» تشكل الأساس لمحادثات فان كلاو مع الزعماء العرب وزعماء اسرائيل، وهي وثيقة تحدد الخيارات المتاحة تحت أربعة بنود: الانسحاب الاسرائيلي؛ تقرير المصير؛ ضمانات الأمن؛ وضع القدس. والمعتقد أن محادثات فان دير كلاو هدفت إلى تحديد البنود التي تشكل أفضل الامكانيات لحل وسط.

□ إن دول السوق الأوروبية المشتركة تقبل القول بضرورة أن يسبق الاستقلال الفلسطيني التام نوع ما من الترتيب الانتقالي الذي يمكن أن يكون حكماً ذاتياً، في ظل رؤساء بلديات منتخبين تحت إشراف دولي.